

الظلم والعدل

وأثرهما في واقع المجتمع ومستقبله

بمنظار الإمام سعيد النورسي (ت)

أ. د. عابد توفيق الهاشمي
الباحث والكاتب
دولة الإمارات العربية المتحدة

الإهداء إلى
الدعاة الحكماء في دعوتهم
والدعاة الصابرين المحتسبين لرب العالمين في رسالتهم
والأتقياء الزهاد في نسكهم وعيشتهم
ومن يبحث عن ضالته في فهم ماضيه وحاضره ومستقبله
إليهم جميعاً أهدي القدوة المثلى لهم - الإمام سعيد (رحمه الله)، في تصديده للظلم، وتحقيقه
الرحمة والعدل في نفسه وأتباعه.

مقدمة:

إن هذا الموضوع أخطر ما في عمر الكون، للصراع الأزلي بين قوى الشر والخير،
فيما قدّره الله تعالى على الخلق في عمر الكون، وقدره Y هو العدل، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ
عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١)، لذا أوليته اهتماماً خاصاً، فقرأت
جميع رسائل النور بصحائفها وكلماتها، واقتطفت منها ما ذكره الإمام سعيد (ت) في
مجال الصراع بين الظلم والعدل، ليفوز العدل في نهاية المطاف: ﴿بَلْ نَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَىٰ
الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ١٨)، ليكون ما جمعته
من شتات نواة لكتاب قادم، إن شاء الله .

ثم لخصت ما جمعته بتنسيق دقيق في هذا البحث الذي ضمّ أربعة محاور، وهي:

- ١- عقيدته في الظلم والعدل، المستقاة من صميم الإسلام.
- ٢- بيان أثر العدالة في تاريخنا الإسلامي، بنوعيتها - المحضة والنسبية، وضربه الأمثلة لهما في فتنة الإمام علي (ع) في موقعة الجمل وصفين والخوارج، وبيان أثر الظلم المحض في مجزرة كربلاء.
- ٣- ذكر نماذج نادرة من العدالة الإسلامية في صدر الإسلام، وبيان أثرها في واقع الأمة.

- ٤- بيان المظالم التي لاقاها الإمام سعيد، بما تنوع بحملها الجبال، وهو بجسده الهزيل ومرضه الشديد وعمره المديد - في السبعينات والثمانينات! والتي أثمرت العدالة والرحمة الإلهية باعتقاده، كما استعرضت صلابته وعمق إيمانه، وزهده وورعه وتضحياته وهيام أتباعه به، وأثر كل ذلك في الشعب التركي، وفي الأمة الإسلامية، بما انتهت إليه أحكام كثير من العلماء الأعلام بأنه مجدد القرن الرابع عشر الهجري، ليكون هو والإمام حسن البنا في أعلى عليين لدى أرحم الراحمين اللهم آمين، ولكل منهما أتباع بالملايين، ملء السمع والبصر في العالم الإسلامي.

وقد ختمت البحث برحيل الإمام المظلوم إلى ربه العادل الرحيم به، والمنتقم من أعدائه، وقد شيعته الملائكة حين دفنه في القبر!.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾
(النساء: ٦٩-٧٠) اللهم آمين.

الفصل الأول - الظلم والعدل في الإسلام بمنظور الإمام

أولاً: نظرة الإمام إلى موقف الإسلام من الظلم والعدل:

ظاهرة الحياة وحقيقتها: هي ساحة رحبية تجمع الصالحين والطالحين، والفاسدون هم الأغلبية في عمر التاريخ البشري: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ* وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ آتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٠-٧١)، والحياة بطبيعتها صراع بين الحق والباطل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَضْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (الفرقان: ٢٠).

فالفتنة قائمة بين البشر، وهي امتحان طويلة لحظات عمر الإنسان، هكذا خلقها الله، وهو بصير بما فيها من ظلم وعدل، من خلال هذه الفتنة الجاثمة على قلب كل إنسان، فمن صبر فيها نال رضوان الله في الدارين، ومن افتتن فيها بانھیار صبره، أو باستجابته إلى ما فيها من إغراء كان من الخاسرين.

وجها الحياة لدى الإمام: وجه ظلم ووجه عدل.

"أما وجه الظلم بمنظور الأغلبية فهو أننا محكومون لأهل الدنيا، وسببه الظاهر هو الظلم، وحققتها أننا محكومون للقدر الإلهي، وهو العدل الحقيقي"^(١)، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤)، وقدر الله عدل - لا ظلم فيه ولا اعتراض عليه: ﴿وَأُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (الرد: ٤١).

لذا فإن الإمام الصالح يقول: "ما دام القدر هو الحاكم في تعذيبي وظلمي، والقدر عادل، فأفوض أمري لله رب العالمين: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرُنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٧١)، إني تركت دنياهم تركاً نهائياً، تبتاً لهم! ان قدري بيد الخالق وحده، ليس لي أهل ولا أولاد أفكر فيهم، ولا أموال لي فلم يبق لي إلا أجلي، وهو بيد الخالق وحده، إني أفضل موتاً عزيزاً على حياة ذليلة!"

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر^(٢)

وإن سيد الخلق وإمام الأنبياء والدعاة ليغبط من أمثال الإمام الصالح أي غبطة! إنه يقول: "إن أعطت أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ - تكاليف العيش - ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً، فصبر على ذلك، ثم نقر نقرات فقال: عجلت منيته، قلت بواكيه، قل تراثه"^(٣).

وفي هذا الإنسان الصالح المغمور يقول أبو نواس - التائب:

(١) مکتوبات / ٥٨

(٢) أبو فراس الحمداني - المکتوبات / ٥٨-٥٩

(٣) حديث حسن، رواه الترمذي / سنن الترمذي / ٢٣٤٧

تسترت من دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري، وليس يراني
ولو تسأل الأيام ما اسمي؟ لما درت وأين مكاني؟ ما عرفن مكاني!^(٤)

للعدالة الإلهية في الحياة شقان: إيجابي وسلبي:

يرى الإمام الورع "أن الحياة كلها عدالة، لأنها قدر إلهي محض، وقدر الله عدل":
﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّمَحٍ بِالْبَصْرِ﴾ (القمر: ٤٩-٥٠).
"أما الشق الإيجابي لهذه العدالة، فيتمثل بإعطاء كل ذي حق حقه"^(٥). وهو عدل
ظاهري حقيقي يتمثل بثواب الله الدنيوي والأخروي: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ
أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
(النحل: ٩٧).

"أما السلبي، فهو تأديب غير المحققين، بإنزال الجزاء والعذاب عليهم"^(٦)، وهو عدل
حقيقي كذلك، يتمثل بعقاب الله في الدارين للمستحقين: ﴿وَلَنذِيقُنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْيِ
دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة: ٢١)

"كما يرى الإمام أن العدالة الإلهية المطلقة في الكون تحكم المخلوقات جميعها
على منوال الحكمة الأزلية التي وهبت للإنسان قوة حافظة كحبة الخردل حجماً،
وكتبت فيها تفاصيل حياته وما يمسه من أحداث لا تحصى، وضعتها في زاوية من
دماغه، لتذكره دوماً بيوم الحساب، يوم تنشر فيها صحائف الأعمال"^(٧).

"كما ترى العدالة المطلقة ان تضع كل عضو من الكائن الحي موضعه اللائق به،
وتقيسه بموازين دقيقة حساسة، ابتداء من نحل ضعيف إلى نسر مهيب، وزهرة لطيفة
إلى ربيع زاه بملايين من الأزهار، ونراها تمنح كل عضو تناسباً لا عبث فيه، وموازنة
لا نقص فيها، لذا فان الحقائق التي أتى بها الله في الإسلام هي الرحمة والحكمة
والعدالة والغذاء والهواء، ويعقب الإمام على كل ذلك بان (العدل الإلهي) قد ختم
جميع موجوداته تحت جناح ميزانه في الكون: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا
إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّمَحٍ بِالْبَصْرِ﴾ (القمر: ٤٩-٥٠)، ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ
السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَدَىٰ أَثْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٨٨).

(٤) موسوعة رياض الشعر الإسلامي الحكمي - د. عابد الهاشمي

(٥) الكلمات / ٩١

(٦) المصدر السابق.

(٧) الشعاعات / ٢٦٤

ولا نرى في الكون إلا الإبداع، فضلاً عن أن الحقائق الإسلامية تهب لكل ذي حياة حق الحياة، وتنصب له موازين عادلة فائقة، فجزاء الحسنة حسنة مثلها، وجزاء السيئة سيئة مثلها، وفي الوقت نفسه تشعر قوتها وسرمديتها بما تنزل من عذاب مدمر على الطغاة والظالمين، منذ عهد آدم (١) (٨).

ويضيف الإمام: "ونحن إزاء هذه العدالة الإلهية المطلقة في الكون نرى (رحمة) تقييم على كل إنسان إحساناً وعطايًا بعدد حواسه وقواه وأجهزته، كما نرى (عدالة) ذات عزة، تهلك بسوط عذابها أقواماً عصاة، أمثال قوم نوح وهود وصالح وقوم عاد وثمود وفرعون، وهي ذات عناية كذلك، تحافظ على حقوق أصغر مخلوق وأضعفه! انه الإعجاز الرباني الجليل: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (الروم: ٢٥)" (٩).

العدالة المطلقة في البحث والجزاء:

ويؤمن الإمام (٣) "أن آثار هذه العدالة لا تقبل أبداً ولا ترضى مطلقاً عدم بعث الظالمين العتاة مع المظلومين الباقين الذين يساؤون معاً أمام الموت!". ويسترسل في بيان هذه العدالة الإلهية المطلقة، "أن القيامة ستقوم، وأن الحشر والنشور سيحدث، وأن أبواب دار الثواب والعقاب سيفتح، بمقتضى ما في حقائق هذه الفقرات الستة المبتدئة (بمادام): "وما دام مالك الملك قد اختار الأرض من الكون، واختار الإنسان من الأرض، ووجد له مكاناً سامياً، وأولاه الاهتمام والعناية، واختار الأنبياء والأولياء والأصفياء من بين الناس، وهم الذين حبوا أنفسهم إليه بالإيمان والتسليم، وأكرمهم، وأدب أعداءهم بالصفعات السماوية، واصطفى من بين هؤلاء المحبوبين إمامهم ورمز فخرهم واعتزازهم محمد (٤)" (١٠).

ويعقب على هذه العقيدة "أن الثواب عدل، والعقاب عدل، عدل في الدنيا: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩)، كما أن العقاب الأخروي عدل بقوله: "إن عذاب جهنم لهو عين العدالة لأولئك الكفار الذين لا يعيرون للنذر سمعاً" (١١).

(٨) الشعاعات/ ٢٦٧

(٩) الشعاعات/ ٢٤

(١٠) الشعاعات/ ٢٣٧

(١١) الشعاعات/ ٣١٣

كذلك "فإن وجود جهنم وعذابها الشديد لا ينافي قطعاً (الرحمة) و[العدالة] بسبب فتح باب التوبة والرحمة الربانية أولاً: (تعال إليّ، فدونك باب التوبة، ادخل منه)، وبسبب إنسان يتعدى بشدة على عزة جلاله سبحانه، إذ ان هذه الدنيا مزرعة الآخرة"^(١٢).

ثم يؤكد "أن العدالة الإلهية تقضي الحشر بالضرورة، وإن عدم مجيئها محال في ألف محال، هذا إضافة إلى أن عدم مجيء الآخرة يعني سقوط هيبة السلطة السرمدية، ويعني اتهام كمال الربوبية بالعجز والقصور"^(١٣).

ثانياً: واقع العدالة في التاريخ الإسلامي:

يعتقد الإمام النورسي أن للعدالة مفهومين في صدر الإسلام، يمثلهما الإمام علي (ع) ومعارضوه في وقائع الجمل وصفين والنهروان، وهما العدالة المطلقة (المحضة)، والعدالة النسبية (الإضافية).

أما (العدالة المحضة): "فتتمثل بالالتزام بحرفية النص ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩).

أما (العدالة النسبية): "فتخضع للاجتهاد، وملاءمة النصوص للواقع الجديد". ويرى الإمام الصالح (ع) أن الصواب مع الإمام علي (ع) على نهج الشيخين قبله، "وان صفاء القلوب في عهدهما ممهدين لنشر العدالة المحضة"^(١٤). وأن الخطأ كان مع المجتهدين في الكتاب والسنة، الذين لا يحكم عليهم بالكفر، ولكنهم في اجتهادهم الذي أخطؤا فيه مأجورون، لأنهم اجتهدوا في فهم النصوص فأخطؤا، وذلك بسبب دخول أقوام متباينة الطباع والاتجاهات.

أما اجتهاد أم المؤمنين وطلحة والزبير المبشرين بالجنة، في موقعة الجمل، فلا ملامة عليهم، وكذلك موقعة صفين بين الإمام ومعاوية، فكان اجتهاداً خاطئاً، لهم أجر اجتهادهم، ولا يحملهم ذلك على الكفر أو ملامتهم، لان كلاً من الطرفين توصل إلى اجتهاده بنية خالصة، ابتغاء مرضاة الله ومصالحة الإسلام، فيصح ان تقول: القاتل والمقتول كلاهما من أهل الجنة، وكلاهما مأجور ومثاب، رغم ان اجتهاد الإمام علي

(١٢) الشعاعات/ ٢٦٨

(١٣) الشعاعات/ ٢١٨

(١٤) المكتوبات/ ٥٨-٥٩

(٢) كان صواباً، ومخالفه خطأ وليس عليهم عقاب أخروي^(١٥)، [وعلينا أن نقرأ في حقهم قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤١)، لذا فإن قسماً من الصحابة قد ظهروا في الجهة المخالفة للإمام علي، نتيجة الأخذ بالعدالة النسبية، إتباعاً للرخصة الشرعية، بدلاً من أن يكونوا مع الإمام علي الذي ألزم نفسه بالأخذ بالعدالة الحقيقية (المحضة)، ومنهم (عقيل) أخو الإمام علي و(ابن عباس) الملقب بحبر الأمة، و(طلحة والزبير) من العشرة المبشرين بالجنة، وقسم من آل البيت كانوا في الصف المعارض نتيجة هذا الاجتهاد، لهذا فقد اتخذ أهل السنة والجماعة قاعدة الأساس الشرعية، وهي عدم جواز فتح أبواب تلك الفتن، فقالوا: ومن محاسن الشريعة سدّ أبواب الفتن، وقد طهر الله أيدينا، فلنظهر ألسنتنا منها، وهو قول عمر بن عبد العزيز (٢).

ويتلخص معنى العدالة بنوعها بإيجاز:

العدالة المطلقة: (لا يجوز معاقبة إنسان بجريرة غيره، ولا يضحى بفرد واحد لأجل سلامة الجميع): ﴿قُلْ أَغْبِرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

والعدالة النسبية: (إن الجزء يضحى لأجل سلامة الجميع)^(١٦).

ثالثاً: واقع العدالة في التاريخ الإسلامي – من خلال الظلم
تمثله (فاجعة كربلاء)

وهي أكبر مصيبة حلت بالعالم الإسلامي بعد وفاة رسوله الحبيب (ع)، وهي استباحة آل بيت النبي – وكانوا سبعين من الرجال، مع الإمام الحسين (ع)، إلا الإمام زين العابدين – السجّاد، إذ كان مستجى مريضاً.

غير أن الإمام النورسي يرى أنها تستحق التهئة لآل البيت، بل بألوف التهاني، من حيث نيلهم الرحمة الواسعة، مقابل بضع سنين من المتاعب والآلام، [بل مقابل ساعات الشهادة]! يقول (ع): (تميّت أني أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل)^(١٧)، لما رأى للشهيد من تكريم في الجنة: (أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسبح تحت عرش الرحمن)^(١٨).

(١٥) المكتوبات/ ٦٦

(١٦) الملاحق/ ٣٩٩-٣٠٢

(١٧) رواه مسلم/ ١٨٧٦

(١٨) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح/ ١٦٤١

ويرى كذلك أن القدر الإلهي العادل في حق الحسين وذويه أحرز نتائج أخروية وسلطة روحية ورقياً معنوياً [دنيوية]، بسبب فاجعتهم الأليمة، جزاء منزلتهم الرفيعة التي حظوا بها^(١٩).

لذا، فليس من الإيمان، ولا من الصواب التألم لحالهم الآن، وإشعال الفتنة الطائفية التي مضى على حدوثها ١٤٠٠ سنة بسببهم^(٢٠).

أفي حين أن الإيمان يقضي بالتسليم لقدر الله، والخضوع لمنطق الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿﴾ (البقرة: ١٥٦-١٥٧)، ولا تقابل هذه المصيبة باللطم والنحيب والصراخ والوعيل: (ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية)^(٢١)،

كذلك ليس علينا أن نحمل الأمة ما عمله أعداء الإسلام - من الشيعة والسنة، وهم قتلة الإمام الحسين وآل البيت، إذ ﴿قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أُنْبَغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

يقول المصطفى (ع): (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل عمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)^(٢٢) أو كما قال (ع)، ولا يحكم على القلوب إلا خالقها: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر: ١٩)، وسمي القلب كذلك لتقلبه!! إذ الله Y المسؤول عن حساب الناس بعد موتهم، وليس البشر: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ (الغاشية: ٢٥-٢٦).

رابعاً: نماذج من العدالة الإسلامية في صدر الإسلام:

من حق الأمة الإسلامية أن تنبه على الأمم جميعها في عدالتها النادرة - عدالة الأفراد وعدالة الحكام، وعدالة الحروب، وهي تهتدي بنصوص كتابها العزيز، منها:

(١٩) المكتوبات/ ٧٠

(٢٠) الملاحق/ ٣٠١-٣٠٢

(٢١) رواه عبد الله بن مسعود، حديث صحيح، أخرجه البخاري/ الجامع الصحيح/ ٣٥١٩

(٢٢) رواه مسلم/ ٢٦٤٣

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨)، قالها رسول الله (ع) بعد صلاته في جوف الكعبة في فتح مكة، وهو يرجع مفاتيح الكعبة إلى سادنها الأصلي (عثمان بن طلحة): (حذاها خالدة تالدة إلى يوم القيامة، لا ينازحك فيها إلا ظالم)، قال عمر (ت): (وكأني أيقنت أن هذه الآية هي الوحيدة التي نزلت في جوف الكعبة)، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

فلا الحب والبغض ولا القرابة والبعاد لها أثر في العدل المطلق في الإسلام، عدل بالحكم وبالقول. ومنها قوله (ع) في حق المواطنين غير المسلمين: (لكم ما لنا وعليكم ما علينا)، أي لكم من الحقوق كما للمسلمين، وعليكم من الواجبات ما عليهم، من غير ظلم أو تمييز!

أما شواهد الالتزام بهذه النصوص فلا تعدّ ولا تحصى، في عمر التاريخ الإسلامي، (في جميع الفتوحات الإسلامية، وفي تحاكم الخلفاء إلى القضاء مع أعدائهم!! وحكم القاضي المسلم العادل عليهم، ورضاهم بقضائه.

ومن القصص الشهيرة في العدل الإسلامي نذكر أربع قصص، تغني عما سواها:

١- غضبة محمد (ع) العادل في شفاعة جبه زيد لامرأة مخزومية سرت، فغضب أشد الغضب، وجمع المسلمين في المسجد، وخطبهم: (إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، فوالذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرت، لقطع محمد يدها)^(٢٣).

٢- محكمة عمر (ت) مع نصراني في محكمة واحدة^(٢٤)، يشير إليها الإمام الصالح، ولكنه لم يشرحها، غير أنني لم أعرف دين خصم الفاروق، ولكنني لم أجد الفاروق اختصم بين يدي قاضٍ إلا هذه القصة مع أعرابي: "اشترى منه فرساً، ونقده ثمنه، ثم امتطى صهوته ومضى به لكنه ما كاد يبتعد بالفرس طويلاً حتى ظهر فيه عطب عاقه عن مواصلة الجري، فانتثني به عائداً من حيث انطلق، وقال للرجل: خذ فرسك فإنه معطوب. فقال الرجل: لا آخذه يا أمير المؤمنين وقد بعته منك صحيحاً، فقال

(٢٣) رواه البخاري/ ٤٠٥٣

(٢٤) السيرة/ ٤٤٦

عمر: إجعل بيني وبينك حكماً^(٢٥). فقال الرجل: يحكم بيننا شريح بن الحارث، فقال عمر: رضيت به.

احتكم الاثنان إلى شريح، فلما سمع شريح مقالة الأعرابي: إلتفت إلى عمر بن الخطاب، وقال: هل أخذت الفرس سليماً يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: نعم، فقال شريح: احتفظ بما اشتريت يا أمير المؤمنين، أو ردّ كما أخذت. فنظر عمر إلى شريح معجباً، وقال: وهل القضاء إلا هكذا؟! قول فصل، وحكم عدل، سر إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها!.

قضى شريح ٦٠ عاماً متتابعة في القضاء، في عصور عمر وعثمان وعلي ومعاوية، واستمر حتى ولاية الحجاج أيام عبد الملك بن مروان، حتى بلغ من العمر ١٠٧^(٢٦).

٣- شريح يقضي لليهودي على الإمام علي بن أبي طالب (ع):
افتقد الإمام علي درعاً له، ثم وجدها في يد رجل من أهل الذمة، يبيعها في سوق الكوفة، فلما رآها عرفها وقال له: هذه درعي، فأجابه: بل هي درعي يا أمير المؤمنين، بيني وبينك قاضي المسلمين. قال علي (ع): أنصفت، فهلم إليه، فلما صار عنده في مجلس القضاء قال شريح لعلي (ع): ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال: لقد وجدت درعي هذه مع هذا الرجل، وقد سقطت مني ليلة كذا في مكان كذا، وهي لم تصل إليه لا يبيع ولا هبة.

قال شريح: وما تقول أنت أيها الرجل؟
قال: الدرع درعي، وهي في يدي، ولا اتهم أمير المؤمنين بالكذب.
فالتفت شريح إلى الإمام، وقال: لا ريب عندي في أنك صادق يا أمير المؤمنين، وأن الدرع درعك، ولكن لا بد لك من شاهدين يشهدان على صحة ما ادعيت.

فقال علي: نعم، مولاي قنبر، وولدي الحسن يشهدان لي.
فقال شريح: ولكن شهادة الابن لأبيه لا تجوز يا أمير المؤمنين.
فقال علي: يا سبحان الله، أما سمعت رسول الله (ص) قال: (الحسن والحسين سيديا شباب أهل الجنة)؟! فقال شريح: بلى يا أمير المؤمنين، غير أنني لا أجزى شهادة الولد لوالده.

عند ذلك التفت علي إلى الذمي، وقال: خذها، فليس عندي شاهد غيرهما.

(٢٥) موسوعة الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره - العصر الأموي، د. عابد توفيق الهاشمي / ص ٩٤
(٢٦) موسوعة الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره - العصر الأموي، د. عابد توفيق الهاشمي /

فقال الذمي: ولكن أشهد بان الدرع لك يا أمير المؤمنين، ثم أردف قائلاً: يا لله، أمير المؤمنين يقاضيني أمام قاضية، وقاضيه يقضي لي عليه، أشهد أن الدين الذي يأمر بهذا لحق وأشهد أن لا اله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أعلم أيها القاضي أن الدرع درع أمير المؤمنين، وأني اتبعت الجيش، وهو منطلق إلى صفين، فسقط الدرع عن جملة الأورق، فأخذتها.

فقال الإمام الخليفة: (أما وأنك قد أسلمت فإنني وهبتها لك، وهبت لك معها هذا الفرس أيضاً،

ولم يَمْضِ على هذا الحادث من طويل وقت، حتى شوهد الرجل يقاتل الخوارج، تحت راية علي في يوم النهروان، ويمعن في القتال، حتى كتبت له الشهادة^(٢٧).

٤- شريح يقضي على ولده لخصومه: عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

"قال ابنه له يوماً: يا أبت إن بيني وبين قومي خصومة، فانظر فيها.
فقال له: انطلق فقااضهم.

فمضى إلى خصومه، ودعاهم إلى المقاضاة، فاستجابوا له، ولما مثلوا بين يدي شريح، قضى لهم على ولده.
فلما رجعا إلى البيت قال الولد لأبيه: فضحتني يا أبت، والله لو لم أستشرك من قبل لما لمتك.

فقال شريح: يا بني، والله لأنت أحب إلي من ملء الأرض من أمثالهم، ولكن الله Y أعز علي منك، لقد خشيت أن أخبرك بأن الحق لهم، فتصالحهم صلحاً يفوت عليهم حقهم فقلت لك ما قلت"^(٢٨).

الفصل الثاني - الإمام بديع الزمان (ع) يحدث عن ظلمه وعدالة قدر الله فيه

١- العدالة الإلهية الدنيوية والأخروية تبرز من خلال الصراع:

لاقى الإمام الصالح (ع) من الظلم ما يندر ان يلاقيه داعية في عمر التاريخ، وهو سنة الحياة تنطبق على الحياة الإنسانية في عمرها المديد: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ

(٢٧) المصدر السابق/ ٩٧-٩٨، عن (صورة من حياة التابعين، عبد الرحمن رأفت الباشا)

(٢٨) المصدر السابق/ ٩، عن (صورة من حياة التابعين، عبد الرحمن رأفت الباشا)

الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَضْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ (الفرقان: ٢٠)، ومن خلال هذا الصراع تثمر العدالة الإلهية: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ١٨).

لذا فان الإمام النورسي يؤكد ان الرحمة الإلهية والعدالة تكمنان تحت الظلم والمصائب: "ما من مصيبة تنزل إلا وتحته رحمة إلهية"^(٢٩)، ويقول كذلك: "أثبتت رسائل النور أنه قد تنبثق عدالة من بين طيات الظلم، أي قد يحكم عليه بالحسب، ويرى ان غياهب السجون ظلم واضح، وهو كذلك، ولكنه قد يكون سبباً لتجلي العدالة وظهورها، ببراءة المظلوم من ظلم الظالم بالمحاكم، فتتزل الرحمة الإلهية به"^(٣٠). ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الانشراح: ٥-٦).

ومن عدالة الله تعالى في قضائه بالشدائد والمظالم أنها ترجع صاحبها إلى الله، بمحاسبته نفسه لعلها عقاب على ما ارتكب أو تحذير ألا يقع بمكروه، ويصوغ المعاني الإمام الصابر بقوله: "ان تعذيبي طوال ٢٨ سنة في شتى ألوانه بتهمة استغلال الدين في سبيل السياسة، ولم يثبتوا شيئاً منها في، وهي ليست مخالفة للعدالة الإلهية، ثم انتهت إلى الجواب أن ديني هو اتخاذي خدماتي القرآنية وسيلة للترقي المعنوي والكماليات الروحية، لأن أعدائي طوال هذه السنوات وضعوا موانع قوية جداً خارج إرادتي، لكي لا أتخذ خدماتي الروحية وسيلة للترقيات المادية والمعنوية، ومن أجل الخلاص من العذاب ومن جهنم"^(٣١).

فما كان يقيم وزناً للمظاهر والدعاية، وكسب الدنيا، وكان يكفيه أن يدع الحقائق الإيمانية وحدها تتكلم"^(٣٢). ليكون عمله خالصاً لوجهه الكريم. تلك هي عدالة الدنيا، أما عدالة الآخرة ورحمة الله فيه، وانتقامه من الظالمين، ذلك هو الجزاء الأوفى!

يصف الإمام تعذيبه وإذلاله خلال (٢٨ سنة) في أواخر حياته، "بقساوة الوحوش الكاسرة، ليكسب من خلالها شهادة خالصة، يعدها ماء كوثر له". ثم يقول: "غير أن الانتقام الرباني منكم الذي ترتعد فرائصكم منه، هو أنكم لن تعيشوا بعد قلتي فإن يداً

(٢٩) الملاحق/ ٢٨٢

(٣٠) الملاحق/ ٣٦٨

(٣١) المكتوبات/ ٥٥٦-٥٥٧

(٣٢) الملاحق/ ٣٦٨-٣٧٠

قاهرة ستأخذكم من دنياكم التي هي جنتكم، وانتم مغرمون بها، وتطردكم عنها، وتقذف بكم فوراً إلى ظلمات أبدية، وسيقتل بعدي رؤسائكم الطغاة قتلة الدواب، ويرسلون إلي، وسأمسك بخناقكم أمام الحضرة الإلهية، وسأخذ حقي منكم بالقاء العدالة الإلهية، في أسفل سافلين، وان ثأري سيؤخذ حقي منكم أضعافاً مضاعفة. ان موتي سيخدم الدين أكثر من حياتي، وإن وفاتي ستفلق على رؤوسكم انفلاق القنبلة، وستشتت رؤوسكم، وأنا أتلو بكل جرأة وقوة إزاء تهديداتكم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٣-١٧٥) " (٣٣).

وإن الإمام الصابر (ع) ليلخص أثر الظلم في إبراز العدالة الإلهية بقوله: "إن كل المصائب التي تنزل بنا هينة وتافهة، بل إنها عناية إلهية محضة ورحمة بعينها، أي أن ظلم المصائب هي عناية إلهية محضة، بل هي رحمة بعينها، قلت هذا ووجدت السلوان الكامل" (٣٤).

٢- الإيمان يحول دون الدعاء على الظالمين:

هذا الإيمان الصادق، وهو في جحيم الظلم، يتمنى الهداية لظالميه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦)، فكان المصطفى يتألم على ظالميه، لا منهم، مع أنه (ع) لاقى من العذاب ما لم يلاقه أحد لا قبله ولا بعده، فصبر، ودعا لهم وتشفع لهم، واعتذر لهم، وهو يمسح دمه الزكي عن جبينه وقدميه في الطائف (لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله، اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون) (٣٥).

يقول الإمام الصالح (ع): "يا إخواني لا تقلقوا عليّ أبداً، حتى أنني كلما نويت الدعاء عليهم لدى أهانتهم لي إهانة شديدة يجرحني جرحاً أليماً، لذا فان الإيمان يحول دون الدعاء عليهم" (٣٦).

(٣٣) الشعاعات/ ٢٣٦

(٣٤) الملاحق/ ٢٣٩

(٣٥) رواه البخاري/ ٣٢٩٠

(٣٦) الملاحق/ ٢٨٢-٢٨٣

هذا وان الإمام الصابر على هذه البلوى تصدى للعفو عن ظالميه، واعتبرهم أنهم الذين ساعدوا على نشر الإيمان، وينشرح صدره بظلمهم! "والذين آذونا وعدبونا، وساعدوا على نشر الإيمان، ندعوا لهم بالهداية"^(٣٧).

كما أوصى طلابه "بالا يحمل أحد منهم شيئاً من روح الانتقام في قلبه، ولو بمقدار ذرة، وأن يسعوا سعياً جاداً لنشر رسائل النور، لئلا يشغلوا بالحقد على خصومهم عن رسالتهم الكريمة"^(٣٨).

٣- الشكوى من الظلم نقيض الإيمان:

إنه القلب المليء بنور الإيمان، والاطمئنان بنصر الله مع هدايته: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان / ٣١)، لا يقتصر على الدعاء لظالميه فحسب، بل يوصي بعدم الشكوى إلا لله، إذ بيده وحده مقاليد الحكم للسموات والأرض، ومن فيهن: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤)، وهو يرى أن الشكوى من الظلم بمثابة الاعتراض على القدر الإلهي، ويوصي: "لا يقل أحدكم: لو لم يكن كذا لما حدث كذا"^(٣٩).

وهو يؤمن أن القدر الإلهي رحمة بحق الإنسان، فعليه أن لا يفسد آخرته، وليتعود الصبر والتحمل ويكون قدوة حسنة^(٤٠).

وهكذا كان كثير من علماء السلف الصالح - ومنهم القاضي شريح، ينصح: "يا ابن أخي إياك والشكوى لغير الله Y، فان من تشكو إليه لا يخلو أن يكون صديقاً أو عدواً، فأما الصديق فتحنزه، وأما العدو فيشمت بك، ثم قال: أما سمعت قول العبد الصالح: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٨٦)، فجعل الله Y مشكاك ومحزنك عند كل نائبة تنوبك، فإنه أكرم مسؤول وأقرب مدعو"^(٤١).

(٣٧) الملاحق / ٣٧١

(٣٨) الملاحق / ٣٧٢

(٣٩) الشعاعات / ٢٣٦

(٤٠) الشعاعات / ٢٥٦

(٤١) موسوعة الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره - العصر الأموي / د. عابد الهاشمي / ١٠٠

"ولكن عليه أن لا يستسلم لأعدائه، ولن يسلم السلاح تجاه المرتدين من الزنادقة الكفار الذين آذوه بالمحاكم، وبأنواع الأذى"^(٤٢).

وإن الإمام حين يوصي بالثبات وعدم الشكوى إلا لله، وعدم الدعاء على ظالميه، إنما يتذرع بالصبر المرّ:

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني صبرت على شيء أمرّ من الصبر!
ويتسلح بعمق الإيمان بربه الذي هو ناصره، ما دام صادقاً معه Y: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَادِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠)، وليس الصبر في عقيدته تسليماً، وإنما هو أداة صلبة ضد الظلم الذي يواجهه جمال الإيمان وصدق العزيمة: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (المعارج: ٥).

٤- أظلم الظلم العدا، والحب هو الحياة:

العداء ظلم شنيع يفسد حياة البشر، بل هو سم زعاف لحياتنا. وهما نقيضان، "والعداء محرم: (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)"^(٤٣)، بل إن الحب إذا خدش بالكره، فإن الإيمان قد خدش: (والذي نفس محمد بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)^(٤٤)، وإذا تغلبت أسباب العداوة والبغضاء، وتمكنت في القلب فإن المحبة تنقلب حينئذ إلى محبة شكلية، تلبس لبوس النفاق والتملق"^(٤٥)، وهو أخطر أنواع السلوك الإنساني، يقول المصطفى (E): (شر الناس ذو الوجهين، يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه)^(٤٦).

"والحقد على المسلم ظلم عظيم: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤)"^(٤٧)،

(٤٢) الشعاعات/ ٣٤٧

(٤٣) البخاري/ ٣٣٩، مسلم/ ٢٥٦٠

(٤٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان/ ٨٧٤٦

(٤٥) المكتوبات/ ٣٤٠

(٤٦) رواه ابو هريرة، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح/ ٣٤٩٣

(٤٧) المكتوبات/ ٣٤١

علاج العداة: "يبدأ العلاج بمعادة ما في قلبك من العداوة، واجتهد في إطفاء نارها" هكذا يصف الإمام العلاج، وينبه إلى أشد الأعداء: نفسك التي بين جنبيك، ولا تعاد المؤمن، بل الكفار والزنادقة، واغلب الخصم بدفع سيئة بحسنة: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)، "وإن قابلت الإساءة بمثلها فالخصومة تزداد، والعداء يستمر، وإن قابلتها بالإحسان، فتسوقه إلى الندم

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا^(٤٨)

وعداء المؤمن للمؤمن إنما هو عداء لنفسه، وظلم لها^(٤٩).

أما إن كان سبب العداوة الحسد، فهو أشد إيلاماً للحاسد من المحسود، بل هو يقتل صاحبه:

لله در الحسد ما عدله! بدأ بصاحبه فقتله!

ويقول الآخر:

إصبر على مضمض الحسو د فإن صبرك قاتله

كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

فالسلم والأمان لا وجود لهما إلا في الإسلام والإيمان، والحمد لله على دين الإسلام وكمال الإيمان^(٥٠).

٥- وصف موجز لما لاقاه الإمام في حياته من الظلم:

لقي الإمام الداعية في النصف الأخير من عمره - العقود الأربعة الأخيرة من الظلم والصبر عليه، ما لم يلقه أي داعية في العصر الحديث، وكان مرفوع الرأس من غير ذلة ولا يأس ولا تردد: نوجزه بما يأتي:

١- لقد أسر في سجنه في سيبيريا في الحرب العالمية الأولى، ستين، وكان داعية في سجنه بالأسر، اقتداء بيوسف الصديق في سجنه: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف: ٣٩).

٢- ثم هرب إلى تركيا، وأسهم بجهاده ضد الجيوش البريطانية واليونانية، وتحقق النصر للأتراك عليهم في حرب الاستقلال.

(٤٨) المتنبي

(٤٩) المكتوبات / ٣٤٢-٣٤٣

(٥٠) الكلمات / ٨٣

٣- سلبوه حرته، وأسقطوه من الحقوق المدنية^(٥١)، "واعتبرتم البطولات الجسام في الحفاظ على الوطن والنفس والنفيس، بشهادة قواد الجيش في الحرب العالمية الأولى، واعتبرتموها جريمة! واعتبرتم الحفاظ على الأخلاق الفاضلة للأمة المنكوبة، وضمان سعادتها الدنيوية والأخروية خيانة، عاقبتموني بجعلي تحت المراقبة والترصد (٢٨) سنة، ظلماً وتعسفاً"^(٥٢)، بل طيلة (٤٠) سنة! بمدة أطول بعد ذلك التاريخ. و"اتهموه أنه صاحب طريقة صوفية، وهو بريء منها،" ولم يقدرُوا على إثبات شيء^٤.

- ٤- اتهموه بتأسيس جمعية سرية تعارض قوانين الانقلاب.
- ٥- اتهموه بنشرات دون إذن من الدولة.
- ٦- اتهموه بتسخير الدين لأجل السياسة"^(٥٣).
- ٧- النفس في قسطنطيني ثماني سنوات، وثمان أخرى في بارلا وهكذا في قسطنطيني واميرداغ"^(٥٤).
- ٨- هجوم وزير التربية عليه بعنف، ومطالبته بإعدامه"^(٥٥).
- ٩- سجن أسكي شهر و"سجن دنيزلي، وسجن افيون. غير أن أعداءه أسرعوا بإخراجه من السجن خوفاً من انتشار رسائل النور بين المساجين، وسرعة استجابتهم ذاتياً".
- ١٠- منعه حتى من الذهاب إلى المسجد، ودس السم له في الطعام (١٥ مرة)^(٥٦)، ولاقى سكرات الموت، ثم نجاه الله"^(٥٧).
- ١١- "سجن افيون ١٩٥٠م، وهو بعمر ٧٠ سنة، ويصف سجن يوم واحد منه أكثر آلاماً وقساوة من شهر في سجن دنيزلي، وكان يدعو لهم لا عليهم"^(٥٨).
- ١٢- "لفقوا عليه أن خادمه اشترى له الخمر من حانوت!"^(٥٩).

(٥١) الملاحق/ ٣٣٢

(٥٢) الكتابات/ ٥٥٦

(٥٣) السيرة/ ٢٧٦-٢٧٧

(٥٤) السيرة/ ٣٠٥-٣٠٦

(٥٥) السيرة/ ٣١٢

(٥٦) هامش السيرة/ ٤٣٦

(٥٧) السيرة الذاتية/ ٣٥٩-٣٦٠

(٥٨) السيرة/ ٣٨٥

(٥٩) السيرة/ ٣٨٧

- ١٣- "من أشد التهم الإجرامية بحقه انه كان يدعو الشباب إلى أفكار الإسلام، ويدعو النساء إلى الاحتشام، ويؤيد نظام الدولة على أسس دينية، فاستقدم إلى محكمة الجزاء الكبرى عام ١٩٥٢م، وقد جاوز عمره السبعين"^(٦٠).
- ١٤- بلغ مجموع المحاكمات التي حوكم بها الإمام هو وأنصاره النوريون أكثر من ١٥٠٠ محكمة، خرجوا منها جميعاً ببراءة^(٦١).
- ١٥- "لا سبب للاهانات منذ ٣٠ سنة، بعد تدقيقاتهم في ١٣٠ كتاباً، وألوف المكاتبات، إلا الطهر والنقاء في عقيدة الإيمان التي تنبض في قلوب أتباعه"^(٦٢): ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٨٢).
- ١٦- شغلته هذه السجون والنفي والإقامات الجبرية عن أحوال الدنيا، وعن أحداث الحرب العالمية الثانية، ولم يقرأ خلالها جريدة^(٦٣).

٦- ثبات الإمام الصامد وإصراره على التضحية في خدمة القرآن الكريم:

لقد ضحّى الإمام الداعية الصامد العنيد أمام الباطل روحه الرخيصة في خدمة القرآن الكريم، وضرب أروع الأمثلة في عمر التاريخ الإسلامي، وهو المريض الهزيل المتحدي للكفر واهله، إنه يقول بجرأة لا مثيل لها، وعلى كل داعية أن يتخذة مثلاً أعلى لصموده في دعوته، "ألا فلتعلموا جيداً بأنه لو كان لي من الرؤوس بعدد ما في رأسي من الشعر، وفصل كل يوم واحد منها عن جسدي، فلن أحنى هذا الرأس الذي نذرتة للحقائق القرآنية أمام الزندقة والكفر المطلق، ولن أتخلى بحال من الأحوال عن هذه الخدمة الإيمانية النورانية، ولا التخلي عنها"^{(٦٤) (٦٥)}.

(٦٠) السيرة/ ٤٤٤

(٦١) الشعاعات/ ٢٨٦-٢٨٩

(٦٢) السيرة/ ٤٤٠

(٦٣) السيرة/ ٣٩١

(٦٤) لهذه القصة النادرة في التضحية شبيه لها في قصة حدثت لصحابي جليل (عبد الله) أسره الروم، وأخذوه إلى القيصر، ووعده بأن يزوجه ابنته، ويجعله إمبراطور الروم بعد موته، إذا تصبر، فرفض باستهزاء! فقال القيصر: خذوه إلى بركة الموت (التيزاب - التي يُذاب فيها المغضوب عليهم)، فحضرها، وبكى! فأسرع السجنانون إلى القيصر، قائلين له: إنه يبكي، ولعله انهار خوفاً من الموت البشع! فقال: اجلبوه إلي بسرعة، فلما حضر قال له: بلغني أنك بكيت، أخفت من عقاب الموت؟ ورضيت بإغرائي ووعدي! قال: والله يا أيها القيصر، لقد تمنيت أن يكون لي أرواح بعدد شعر رأسي، وكلما انتزعت روح قدمت ما بعدها، ولكنني بكيت لأن لي روحاً واحداً أزهرقه في سبيل الله، والله يستحق الكثير، فأمر القيصر بإلقائه في بحيرة التيزاب، وزهقت روحه الشroud إلى ربها الكريم، ولما بلغ عمر الفاروق (ع) الخبر بكاه هو والصحابه في مسجد المصطفى (ع).

(٦٥) السيرة/ ٣٩٤

ويقارن بينه وبين خصومه: "أنتم تضحون بدينكم وآخرتكم في سبيل ديناكم، ونحن بدورنا مستعدون على الدوام للتضحية بدينانا في سبيل ديننا، وفي سبيل آخرتنا"^(٦٦).

٧- صلابة الإمام إزاء الطغاة، وتصديه لهم وتصديه لرئيس الأساقفة:

في احتلال الإنكليز لإستنبول عام ١٩٢٠م، كان الإمام يدافع مع الجيش العثماني في حرب التحرير (الاستقلال)، فدمر الإنكليز المدافع في المضيق، وكانت الخسائر فادحة في الجيش المسلم،

ثم صار الإمام عضواً في دار الحكمة الإسلامية، "فسأل رئيس أساقفة الكنيسة الأنكليكية من المشيخة الإسلامية ستة أسئلة، فقالوا له: أجب عن أسئلتهم بستمئة كلمة كما يريدون، فقلت: إن جواب هذه الأسئلة ليس ستمئة كلمة، ولا ست كلمات ولا كلمة واحدة، بل بصقة واحدة، لأنه عندما داست تلك الدولة بأقدامها مضايقتنا، وأخذت بخناقتنا، كما ترون، ينبغي البصاق في وجه رئيس أساقفتهم إزاء أسئلته، ولهذا قلت: ابصقوا في وجوه الظلمة التافهين"^(٦٧)!

ويفيض في حديثه: "لو أن الظالم إذا سحق إنساناً تحت أقدامه، وبدأ المظلوم بتقبيل أقدامه، فإن قلبه ينسحق بسبب تلك المذلة قبل رأسه، وتموت روحه قبل جسده، وإن أبدى الضعيف تجاه ذلك الظالم القاسي، يشجعه على سحقه أكثر، بينما لو بصق المظلوم في وجه ذلك الظالم، فإنه ينقذ قلبه وروحه، ويصبح جسده شهيداً مظلوماً، نعم ابصقوا في وجوه الظالمين الضعيفة"^(٦٨).

ولقد أجبتهم وتحديتهم، وكان الهلاك محققاً، وحتماً مئة بالمئة، ولكن الله كفاني، وقد أحاطنا الله بسور عظيم هو سور: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣)، فلن تقدرُوا أن تخوفونا عن طريق الآخرة!^(٦٩).

(٦٦) الشعاعات/ ٤٨٦

(٦٧) المكتوبات/ ٥٣٨-٥٣٩

(٦٨) المكتوبات/ ٥٣٨

(٦٩) الكتوبات/ ٥٦٧

٨- جرأته على ظلم المستعمرين في كلماته الست:

يقول الإمام: "لقد نفذ صبري في السكوت عليهم، وها أنذا أخطب هؤلاء السفلة الدينيين الذين حرموا الضمير، بعد نفاذ الصبر. [خليلي ما أحرى بذي اللب أن يرى صبوراً ولكن لا مجال إلى الصبر! ويقول الآخر:

صبرت على شيء أمر من الصبر!] سأصبر حتى يعلم الصبر أنني أقول لهم: "يا أهل الإلحاد والبدعة، إنني أطلبكم بالإجابة عن ستة أسئلة، نذكر أولها فقط، لبيان حقارتهم وضعتهم: (إن لكل حكومة، مهما كانت، ولكل قوم، بل حتى أولئك الذين يأكلون لحم البشر، بل حتى رئيس أية عصابة شرسة، منهجاً وأحوالاً ودساتير يحكمون وفقها؟ إن أهواء موظفين حقراء هي القانون! ليس في العالم قانون يسمح بالتدخل في عبادة شخصية خاصة، ولا يسن قانون في ذلك قطعاً)"^(٧٠). لقد كتبت الرسائل الست أثناء الحرب العالمية، ومرت بين يدي محاكم كثيرة، وكتبت في حالة ثورات غضب"^(٧١).

١١- ثمار دعوة الإمام النورسي (ت)، ضد الظلم، وهي تمثل العدالة الإلهية التي تتبع من الظلم:

"لقد عاصر الإمام في دعوته للقرآن الكريم ثلاثة عهود - نظام المشروطية - زمن عبد الحميد - وامتدحه شخصياً، وأثنى على دينه، وحكومة الاتحاد والترقي، والجمهورية. كانت ثمار دعوته بسببين:

أولهما: برسائل النور التي كان يكتبها أو يملئها، ثم نشرت بالرونيو ثم سمح بطباعتها ونشرها عام ١٩٥٦م، وكان انتشارها بين القراء كالنار في كالهشيم"^(٧٢). "بلغت أعداد رسائل النور بعد الإذن بطباعتها ٧٠٠٠٠ نسخة، واستطاعت هذه الرسائل خلال ٢٠ عاماً أن تجعل أكثر من ١٠٠,٠٠٠ رجل أعضاء لم يتضرر بهم أحد بشهادة رجال الأمن"^(٧٣).

(٧٠) الشعاعات/ ٤٩١-٤٩٢

(٧١) الشعاعات/ ٤٩١-٤٩٢

(٧٢) السيرة/ ٢٤٥

(٧٣) السيرة الذاتية/ ٣٩١

ثانيهما: من خلال السجون منذ ١٩٥٦م، بما يدعو به المسجونين شفاهاً وقراءةً لرسائل النور، إذ إن حياته خلال (٣٥) سنة الأخيرة من حياته - باسم (سعيد الجديد)^(٧٤)، اعتزل السياسة وانشغل بإعداد جيل (النور)^(٧٥) - الذي يعتز باسمه.

ولقد اعتزل الدنيا والسياسة، ولعنهما، متفرغاً لربه وللحقائق القرآنية ولنشرها من خلال رسائل النور، كما عزلته الدولة عن الاتصال بالشعب، إذ كانت حياته في (٣٥) سنة الأخيرة ما بين سجون واقامات جبرية، واعتقال ومحاكمات واتهامات، وحرَم نفسه من الزواج ومن متاع الدنيا، وإنه لأمر محير خطير، إذ كيف أثمرت دعوته وهو بمعزل عن الناس؟ إلا رسائل النور!!.

"أثمرت دعوته في طلبه النور المهتدين برسائله، حتى بلغ عدد الحفاظ للقرآن الكريم منهم (٥٠٠,٠٠٠) حافظ" ^(٧٦)، بل قد بلغ عدد طلبه النور الملايين في نهاية حياته في تركيا، وأتباعه بالملايين كذلك في العالم الإسلامي، وكان سلوكهم قمة في الأدب، ولم يرد على دوائر الأمن منهم طالب واحد، إذ يسمون أنفسهم "نحن حراس الأمن" ^(٧٧).

"ورغم الظلم الذي وقع على أتباعه، أيام قوة مطرقة السياسة على الإسلام، لم يتضرر أحد، خلال الـ(٣٥) سنة الأخيرة في حياته" ^(٧٨)، علماً بأن المحاكمات التي دخلها هو وأتباعه خلالها كانت (١٥٠٠) محكمة، خرجوا منها جميعها ببراءة!!.

(٧٤) الشعاعات / ٢٨٦-٢٨٩

(٧٥) كان الإمام (ت) يحب صفة (النور)، ويقول بأنه بدأ برسالة (النور)، وقرئته اسمها (نورس)، والدته المرحومة (نورية) وأستاذه النقشبندي سيد (نور محمد)، وأستاذه في القادرية (نور الدين)، وأستاذه في القرآن (نوري)، أكثر تلاميذه اسمهم (نور)، وأول آية التمتع لعقلي وقلبي وشغلت فكري هي ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥)، وأكثر ما حل مشكلاتي في الحقائق الإلهية اسم (النور)، من الأسماء الحسنى لشدة شوقي نحو القرآن، وانحصار خدمتي فيه، إمامي عثمان ذو النورين (ت) / السيرة الذاتية / ٢٣٠-٢٣٦

(٧٦) السيرة / ٤٤٧

(٧٧) السيرة / ٤٤٨

(٧٨) المكتوبات / ٥٦-٥٧

رحيل الإمام المظلوم (ؓ) إلى ربه العادل
ورعه وزهده في أواخر حياته:

ورعه: لقد عاش ٨٤ سنة (١٨٧٦-١٩٦٠)، وعاش حياته كفافاً وعزوفاً عن الدنيا، وعن الزواج، ولو عرضت عليه الحور العين لرفضهن، "لو وهب لي عشر من الحور العين لتخليت عنهن من أجل حقيقة القرآن" (٧٩)، لهذا لم يتزوج.
"وبلغ من تقواه وورعه ما شُرب به المثل، وله في كل ليلة تسبيح وتهليل ودعاء ومناجاة وتهجد، دائماً" (٨٠).

وكان يستيقظ من الليل، ليصلي التهجد، منتهياً بالأوراد والتسبيحات قبل صلاة الفجر بساعة كاملة بالدعاء، لا يجرأ أحد على دخول غرفته، وكان ينام بعد العشاء مباشرة" (٨١).

وكان في النصف الثاني من كل رمضان لا ينام، ولا يسمح لطلابه أن يناموا، ويرش الماء في وجه النائم، ثم ينام بعد صلاة الفجر، وكان يطيل الدعاء في جلوس التشهد كثيراً، حتى تقرحت أصابع قدمه" (٨٢).

وكان له من الرحمة البالغة أنه لم يؤذ حتى النملة، ويقدم لها البرغل والسكر وفتات الخبز" (٨٣).

رحيله: ومغادرته الظالمين إلى عدالة رب العالمين:

"كانت وفاته في العشر الأواخر من رمضان، إذ كان مريضاً جداً، مسافراً من إسبارطة إلى أورفة، أتى الشرطة لإرجاعه إلى إسبارطة، بأمر وزير الداخلية، وعمره (٨٥)؛ وهو لا يستطيع الحركة، ودرجة حرارته عالية جداً، احتشد ٦,٠٠٠ شخص باستقباله في أورفة، عرضوه للطبيب، ثم توفى في مرضه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد: ٣٨)!

أتى القاضي ليثبت ما يملكه من التركات للإرث، فلم يجد عنده من حطام الدنيا إلا (ساعة وسجادة، ولفاف الرأس وجبة!) أعطاهما لأخيه عبد المجيد" (٨٤).

(٧٩) السيرة / ٥٠٧

(٨٠) السيرة / ٥١٨

(٨١) السيرة / ٥١٨

(٨٢) السيرة / ٥٢١

(٨٣) السيرة / ٥٢٣

(٨٤) السيرة / ٤٨٤-٤٨٥

أتى الناس من كل أنحاء تركيا للدفن، قرؤا الختمة القرآنية حتى الصباح. الملائكة تشيعه في القبر: "عندما كان الإمام يُغسل كانت الأمطار تتساقط رذاذاً، وظهرت طيور بأشكال غريبة وألوان زاهية، وأعداد هائلة جداً لم تظهر من قبل، إنها الملائكة! ودفن يوم الخميس بعد صلاة العصر".

إخراج جسد الإمام من قبره لترحيله إلى مكان مجهول، خوفاً منه، وهو ميت! "بعد مرور ٥ أشهر على وفاته، استدعى الوالي في قونيا أخاه عبد المجيد، لنقل جثمانه من أورفة الساعة ٣ ليلاً، ذهبنا إلى المقبرة، وأمروا بهدم القبر، وإخراج التابوت، وقال أخوه: إن عظام أخي الحبيب قد أصبحت رماداً، ولكن ما أن لمست الكفن حتى خيل إلي أن قد توفى أمس. كان الكفن سليماً إلا أنه مصفر قليلاً من جهة الرأس، وكان هناك نقطة واحدة على شكل قطرة ماء، ولما كشف الطيب عن وجهه فإذا عليه شبه ابتسامة، احتضناه ونقلناه إلى التابوت الآخر، وأخذناه إلى المطار، والشوارع خالية، ومليئة بالجنود المدججين بالسلاح، حيث أعلن منع التجول في المدينة. ونقل بالطائرة إلى أفيون ومنها إلى إسبارطة، حيث دفن في مكان لا يزال مجهولاً رحمه الله.

ولعل هذا استجابة القدر الإلهي لما تمناه الإمام، وكان أوصى طلابه ألا يُعرف موضع قبره إلا واحد أو إثنان، بعيداً عن الشهرة التي قصدها الفراعنة! وهكذا غادر الدنيا بعد أن أصلح الملايين بإذن الله وجمعهم على رسائل النور، وصاروا آية في الورع والخلق والأدب.

وإن رحيل الإمام الصابر إلى جوار ربه، تصوّره الأبيات التالية أجمل تصوير:

أنا عصفور وهذا قفصي طرت عنه وبقي مرتحلاً
أنا في الصور، وهذا جسدي كان ثوبي وقميصي زمناً
وأنا اليوم أناجي ملاً وأرى الله جهاراً علناً
لا تظنوا الموت موتاً، إنه ليس إلا نقلةً من ها هنا

ولنا بعد رحيله عنا أن نناديه بشوق وحنين:

أيها الروح كيف أظفي غليلك حرت والله، ما الذي أصطفى لك؟!
يا جموحاً تنكب الأرض يسعى في السماوات لا ضللت سبيلك
وطموحاً مناه هدّ كياني أتراني محاولاً تذليلك؟!
لست أخشى عليك تخليف كون قد تعجّلت من دناه رحيلك

غير أنني مسائل حين تمضي من لأهل الآلام يبقى بديلك؟! (٨٥)
تعمدك الله يا إمام الأتقياء الصابرين وأسكنك أرحم الراحمين في جناته: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٤-٥٥).

الخاتمة

إن السرَّ الكامن في الظلم هو حرص الطغاة على عروشهم، ألا يززعها فكر
معارض ولا حق ثابت، ويدعون ان معهم الحق كله، ومع غيرهم الباطل والفساد.
وهذا فرعون المثل الأعلى للطغيان والظلم يقول لقومه اتهاماً لموسى (ص): ﴿وَقَالَ
فِرْعَوْنُ ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ
الْفُسَادَ﴾ (غافر: ٢٦)

وما داموا هم رأس الفساد والإفساد فقد حذرنا الله منهم باجتنبهم في الطاعة المطلقة
(العبودية) والإنابة إلى هدي الله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ
لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ
وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ١٧-١٨)

يقول الإمام الشافعي (ص) في هذا المقام:

لما علمت بأن قلبي فارغ ممن سواك، ملأته بهذا
وملأت كلي منك، حتى لم أدع مني مكاناً خالياً لسواك

التوصيات:

أوصي قراء البحث الأعزاء، بما يأتي، تتجاوباً مع عقيدة الإمام في هذا البحث:
١- الانتباه في هذا الموضوع إلى "الاستجابة إلى ما يريد منا ربنا: (الذكر - الفكر
- التأمل - الشكر)، لذا يوصي الإمام الصالح: (أعط باسم الله، وخذ باسم الله، واعمل
باسم الله)" (٨٦)، فالله Y في شغاف قلبه وبؤرة ذاكرته، فلنكن جميعاً مع الإمام في
وصيته.

٢- على كل مسلم أن يضع أمامه غاية الحياة التي خلق لها: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ
عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَّا تَرْجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، فتكون حقاً حياته وفقاً لها ﴿وَمَا خَلَقْتُ
الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

(٨٥) موسوعة رياض الشعر الإسلامي الحكمي - د. عابد الهاشمي، عن الشاعر الملهم عمر بهاء
الأميري

٣- عليه أن يعتقد أن الأقدار من الله، وأن يجمع بين الإيمان بها والدعاء الصادق: (وان الدعاء والقدر ليعتلجان بين السماء والأرض، فيغلب الدعاء القدر)^(٨٧).

٤- كما عليه أن يصبر صبر الإمام سعيد في محن الدعوة، ليقطف ثمار الصبر والنصر في الدنيا والجنة في الآخرة: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠)، وإن صبر الإنسان على البلوى عدل في تقويته من الذنوب، وفي إنايته إلى ربه، وعدل في ثوابه بالآخرة.

٥- وعليه أن يعلم أن حياته مسلماً داعياً، ليست مفروشة بالزهور، فليسلح نفسه بالعلم، كما سلح الإمام نفسه به، فكان موسوعة في علمه، ولسلح نفسه بالتربية الروحية العقدية، ولسلح نفسه بفهم الواقع - واقع الأفراد والمجتمع والدولة، وواقع نفسه في دعوته وإمكاناته، ليتمكن من حمل أعباء الدعوة.

وعليه كذلك أن يوازن بين دنياه وآخرته، ويرجح آخرته على دنياه، إذ هي الخالدة: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤) ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (هود: ١٥-١٦)، لذا فإن الإمام ما كان يقيم وزناً للدنيا وما يملك من حطامها شيئاً، حتى توفاه الله Y وكان يقول: "نحن مستعدون على الدوام للتضحية بدنيانا في سبيل ديننا، وفي سبيل آخرتنا"^(٨٨).

٦- على الداعية أن يكون جسوراً شجاعاً في عزيمته، يقول المصطفى (ع): (لا يحقرن أحدكم نفسه، قالوا: كيف يحقر أحدنا نفسه يا رسول الله؟، قال: يرى أن عليه مقالاً، ثم لا يقول، فيسأله الله تعالى يوم القيامة: لم لم تقل يا فلان في كذا وكذا؟ فيقول: يا رب خشيت الناس، فيقول الله تعالى: فيأياي كنت أحق أن تخشى)^(٨٩)!. يقول الإمام (ع): "إن الله سبحانه وتعالى قد منحنا الشعور بالخوف لنحفظ به الحياة، لا لهدم الحياة وتخريبها"^(٩٠)، "فيا أخوتي إذا ما هجم عليكم من أهل الضلالة والمتزلفين لأهل الإلحاد ليرهبوكم، ويجعلوكم تتخلون عن جهادكم المعنوي المقدس، فقولوا لهم:

(٨٧) رواه أبو هريرة، وهو حديث ضعيف جداً، الألباني، السلسلة الضعيفة/ ٦٧٦٤

(٨٨) الشعاعات/ ٤٨٦

(٨٩) رواه أبو سعيد الخدري، رواه ثقات، المنذري/ الترغيب والترهيب/ ٣/٢٣١

(٩٠) المكتوبات/ ٥٣٦

نحن حزب القرآن.. أحاطنا سور عظيم هو سور ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣)، ولن تقدروا أن تخوفونا عن طريق الآخرة^(٩١).

٧- وعليه عدم الحكم على الماضين، ولا سيما السلف الصالح، إلا بالخير، كما علينا تحسين الظن بهم جميعاً، والصحابة عدول، ولهم اجتهاداتهم، ولهم أجرهم حتى لو أخطوا، وعلينا أن نوكل حسابهم إلى الله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٣٤)، وعلينا احترام الصحابة أجمعين وعدم الإساءة إليهم: (لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، والذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق ملء أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم، ولا نصيفة)^(٩٢)، ويقول (ت): (من علامة الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أولها)^(٩٣).

٨- علينا استقبال المصائب والنوائب بقلب ثابت وصبر جميل، وإنابة وتسليم لرب العالمين، وأن نتصبر بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦)، وهذا هو العدل بين الله وعباده - رحمة في الدنيا بالصبر وأجره ثواب في الآخرة، غير أن التشكي من القدر إنما هو سخط على الله، لأننا أمرنا بالرضا عن قدر الله، لا أن نلطم الخدود ونشق الجيوب، ونولول ونتضجر: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَيْنَمَا قُلْنَا إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٧١)، وفي التسليم لله رضا كامل عنه Y.

٩- عليه ان يجمع بين العقل والإيمان، فيوازن قدرته الإيمانية مع الواقع الذي يعايشه بجميع أبعاده، فإذا قدر القدرة على اقتحامه مضى وإلا أحجم، وهو ينتظر الفرص المواتية من غير خوف ولا تردد، وشأنه شأن الكرارين في الحروب، إذا انسحب من الميدان لعجز عن المقاومة، يترصد الفرص المواتية، ولا يكلفه الله إلا في حدود طاقته: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٧)

(٩١) الكتابات/ ٥٦٧

(٩٢) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه

(٩٣) أخرجه الترمذي/ ٢٢١٠

١٠- وعلى القارئ الكريم أن يدرك أن نفسه عزيزة على ربه، بل هي أعز عليه من الكعبة (لأن تنقض الكعبة حجراً حجراً، أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق)^(٩٤)، بل إنها أعز على الله من أهل السماء والأرض، إن هموا بقتله: (لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل مسلم لأكبهم الله جميعاً في النار)^(٩٥)، لذا فلا يغامر بها إلا بالقدر الذي يرجح فيه فوزه على عدوه، بعد التخطيط الحذر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ (النساء: ٧١)، ولا يحشرها في مهب الرياح والأعاصير، وإن سلامتها أفضل من هدرها من غير ثمرة انتصار الإيمان.

١١- كما أن على المسلم الداعية الحكمة في الدعوة والشجاعة ضد أعداء الإسلام، وعدم الخوف إلا من جبار السماوات والأرض، فإن عليه أن يكون رحيماً مع إخوانه المسلمين، بل مع الناس أجمعين: (الراحمون يرحمهم الرحمن، أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)^(٩٦)، لذا فإن أتباع الإمام وهم بمئات الألوف لن تسجل عليهم زلة واحدة في أمن الدولة أو أمن المواطنين، كما عليه أن يكون رحيماً مع كل ذي روح، يقول المصطفى (ﷺ): (في كل كبد رطبه أجر)^(٩٧)، لذا فإن الإمام الرحيم كان يطعم النمل حبات البرغل، كما كان الفاروق (رضي الله عنه) يقول: (والذي نفس محمد بيده لو عثرت دابة في شاطئ الفرات، لوجدتني مسؤولاً عنها يوم القيامة، لم لم أسو لها الطريق؟! ثم يقول: يا ليتني خرجت من ذلك الحساب كفافاً، لا لي ولا علي!!)

(٩٤) أخرجه النسائي / ٣٩٨٧

(٩٥) أخرجه البخاري، المعجم الصغير / ٥٦٦

(٩٦) أخرجه أبو داود / ٤٩٤١

(٩٧) رواه أبو هريرة، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح / ٦٠٠٩